رأي في موضوع اجتماعي تاريخي

نشأة الطغيان

وصلته بالتجارة

حين بلغت الجمعية البشرية طوراً عرف الانسان عنده حرث الارض بعد أن هدته معيشته الى قنص الحيوان ، كان طابع الحياة الاجتماعية أقرب ما يكون الى الديموقراطية المثالية التي ينشدها الناس في العصر الحاضر ، والتي كان عليها بعض قبائل البدو في الأزمنة الغابرة على ما نعرف . أو لعلّ الحياة القائمة وقتئذٍ كانت في مبناها ومرماها أقرب شيئاً مّا الى نظم الاشتراكية ، البريئة من دنس الاستغلال أيّاً كان نوعه ، والتي عاشها أقوام في مختلف العصور ، هذا إذا لم يكن للحياة في ذلك العصر المتنائي في القدم نظام شبيه بالشيوعية التي حملت الجمهوريات الروسية ، وما زالت تعمل على تحقيقه منذ نهاية الحرب العالمية الماضية .

وليس الغرض هنا تحقيق شيوع هذا النظام أو ذاك في العصور المتقادمة ، ما دام الثابت لدينا أن الجمعية البشرية في بدء تكوينها لم تكن تعرف معنى التحكم أو التملك أو الاستغلال إذ هي لم تمارس شيئاً منه . وظلت الحال كذلك بعض الحين الى أن تحولت الأمور وفرضت الحياة على الناس التفكير في استنباط أدوات يستعان بها على قنص الحيوان وزرع الأرض ووقاية الجسم من حرارة الشمس وبرد الجو وغير ذلك مما دعت اليه الحاجة . فلما اهتدى الانسان الى اختراع أو اكتشاف يفيده في تحقيق مطالب الحياة عنده ، تنازعه عاملان : أحدهما الاحتفاظ بسر ما وجد ، والثاني التفاخر بما قد وفق الى اختراعه أو اكتشافه . وكان من أثر العامل الاول أن انبعث في نفسه لأول مرة حب الاستئثار بما صنع ، ومن ثمّ نشأت في نفسه شهوة الامتلاك . وكان من أثر العامل الثاني أن حاول كل من آنس في نفسه المقدرة ، محاكاة عمل المخترع أو المكتشف ، ومن ثم بدأت أول نهضة للصناعات اليدوية عرفها التاريخ.

ولما تكاثر عدد الصناع وتنوّعت الصناعات وتمايزت المصنوعات ، بدأ التعامل بين الناس على أساس التبادل العيني : ولم يعدو الأمر بادىء ذي بدء تبادل الضروريات وأخصها القوت واللباس . فلما كثر هذا التبادل عرف الناس الأسواق ، وعرضوا فيها بضائعهم فاشتدت شهوة الامتلاك في النفوس ، وعمد كل شخص إلى أن يعمل العمل الذي يحذقه ، أو ظن أنه حاذقه ، ليحصل آخر الأمر على أحسن ما يجد من ضرورياته . غير أن التملك لم يظهر ظهوراً جديًّا إلاّ بعد أن بدأت العائلة تتكوّن على النحو الذي نعرفه اليوم . ومن ثمّ انقلبت نظام الجمعية البشرية العتيق رأساً على عقب ، إذ أصبح التملك بغية كل فرد في المجتمع ، بعد أن كان مجهولاً من قبل .

ولا شك أن بعض المقايضين سوّلت لهم أنفسهم يوماً غبن غيرهم ، فعمدوا إلى الكذب أو الخديعة ليحصلوا على ما تصبو اليه نفوسهم من متاع لا تجيزه قيمة السلعة التي يعرضونها. ولما وفقوا في ذلك في المحاولات الأولى استطابوا هذا الضرب من العمل ، فأخذوا يزاولونه كلما سنحت لهم الفرصة بذلك ، بل عمدوا إلى تهيئة الأحوال التي تتيح لهم ذلك . وكان أن حذا حذوهم كل مقايض اشتهرته هذه البدعة فاستساغها ، وقبلت نفسه النزول على أحكامها . وهكذا انقلبت الآية وانهزمت المبادلة النزيهة أمام صناعة جديدة هي التجارة .

ولعلّ التاجر كان في مستهل الجمعية البشرية أول من نفذت له مشيئة على عدد من الناس لا تربطه وإياهم صلة العائلة ، تخضع لمشيئته من كان يتعامل معه . ذلك لأن أنانيته كانت تدفعه حتماً إلى بخس الناس أشياءهم ، إذا ما عرضت عليه لشرائها ، ثم العمل على رفع قيمتها حين يرغب تاجر آخر فيها . وكذلك كان التاجر دون ريب أوّل من تحكم في البيئة الأولى للبشرية . وأغلب الظن أن التجارة كانت السبيل الوحيد لمن أثرى في بدء حياة الجمعية البشرية . ولما أحسّ التاجر بأن مشيئته نافذة أخذ يبسط سلطانه ونفوذه شيئاً فشيئاً في الوسط الذي كان يعيش فيه . وبديهي أن يكون أكبر التجار ثروة أوسعهم نفوذاً . وهكذا مهدت طبيعة الأشياء لرأس التجار في ظل النظام الجديد أن يتحكم في أفراد الجمعية البشرية الأولى .

وإذا كان قد غاب عنا مذاهب قدماء المصريين في هذا ، فقد وقفنا على رأي ارسطوطاليس وهو الذي أخذ كثيراً من قدماء المصريين . ويتفق رأيه هذا الذي أورده في كتاب السياسة

مع ما ذهبنا إليه . وكان أن جاء بعد ارسطوطاليس نفر من العلماء والوا البحث والاستقصاء في ما أجمله . وكان انجاز أكثرهم توفيقاً فيما ذهب اليه من تعليل سر تكوين العائلة وسر تطور المجتمع ، كما كان كارل ماركس أتقدم بصيرة في هذا الميدان . إذ جاء بنظريته في التفسير المادي للتاريخ ، فتبين الناس سرّ كل تطور في أمور حياة البشر .

***

وإذ كان ارسطوطاليس قد فطن إلى تأثير الناحية الاقتصادية في مجرى تطور البشرية ، فان الأقدمين من مؤرخي اليونان أمثال أفلاطون وهيرودوتوس وثوقيديدس لم يدركوا أصالة هذا الرأي البتة ولم يكتبوا لنا تاريخاً اقتصادياً ، بل ذهبوا فيما كتبوه إلى أن رجل الحرب وحده ، هو الذي كان له النفوذ والسيطرة في المحيط الذي عاش فيه . وشايع هؤلاء المؤرخون الأقدمون جماعات في كل عصر ، حكموا على الأشياء بحسب ظواهرها . وفاتهم أن رجل الحرب في الأزمنة الغابرة ، حين كانت الجمعية البشرية في بدء تكوينها ، لم يكن له من ميزة على غيره ، إلاّ بقدرته على الحرب والغزو وجلب السبايا والأرقاء والأصلاب ، كي يبيعها للتاجر مقابل سلع أخرى عنده ، كان يطمع في الحصول عليها . وإذ كان هذا كذلك ، فقد فتح رجل الحرب للتاجر ميداناً جديداً للكسب والثراء ، وبالتالي لبسط نفوذه وامتداد سلطانه . ذلك لأنه كان يسخّر السبايا والأرقاء فيما يشاء من عمل يعود عليه وحده نفعه . ولما رأى التاجر أن هذه وسيلة مجدية لكسب ثروة كبيرة ، عمد الى مضاعفة العمل في هذا الباب . ولجأ الى الحيلة فأغدق سلعه على من كان يستضعفه حتى إذا ما عجز عن أداء ما يوازي قيمتها من صنعه ، أو إنتاجه ، استأثر به التاجر لنفسه ليعمل مع الأرقاء فيما يريده سيده . وهكذا نشأ الاستعباد أول ما نشأ فيما نظنه .

ولم يكن هذا كل ما وصل اليه التاجر بواسع حيلته ، إذ جرّه دهاؤه الى أن يقرّب رجال الحرب منه ، ويحبّبهم الى نفسه ، ويمدّهم بما تطيب اليه نفوسهم من سلعه ، ويغريهم بالاستمتاع بها . فاذا عجزوا عن أداء ما يوازي قيمتها مما ملكت أيديهم أو امتلكوه من عرض زائل ، حرّضهم على الحرب والغزو ، بل وطالبهم به ليجلبوا له السبايا والأرقاء والأصلاب . فيؤدوا بذلك ما عليهم من دين ويزيد ، وأغلب الظن عندي أن كان هذا أول

عهد الناس بالاستدانة . ومن ثمَّ أصبح رأس التجار عبد وأرقاء من أسرى الحرب وأنصاف عبيد من المحاربين .

وكان كلما تقدَّم الزمن ازداد رأس التجار ثراهة وجشعاً فتعدَّدت حيله ، وتفاوتت أساليبه ، وتنوَّعت سلعه ، وتزايد أرقاؤه وعبيده وأنصاف عبيده ، وكثرت أملاكه الثابتة والمنقولة ، وتجاوزت تجارته المنتجات الزراعية الى المنتجات الصناعية ، وخرج من امتلاك الأراضي المزروعة الى امتلاك المصانع والمحاجر والمناجم ، ونظر الى وسائل النقل في البر والبحر فهيمن عليها ثم استأثر بها . هذا ما كان من شأنه . وكان كلما ازداد التاجر غنىً ، ازداد سلطانه على أفراد الجمعية البشرية التي كان يعيش فيها . بل وسعى الى الاستئثار بذلك السلطان سعياً حثيثاً . وسرى نفوذه شيئاً فشيئاً من ميدان عمله التجاري الى الميدان الاجتماعي . كذلك ارتقى نفوذه وسلطانه من الميدان التجاري الخاص الى الميدان الاقتصادي العام . ثم ما لبث أن سرى نفوذه إثر ذلك الى الميدان السياسي .

وإذاً فلا عجب أن نرى بعد كل هذا الذي وضح لنا ، أن أغلب الحكام في مختلف بلاد العالم كانوا في مستقبل المدنيات ومستهلها تجاراً في الأصل . فلما أن بذوا غيرهم ثراءً وسلطاناً انقادت لهم الأمور وصاروا حكاماً . وقد امتاز نوع حكمهم بالاستبداد . وطبيعي أن يكون كذلك ، إذ كان الواحد منهم يرى في نفسه ، المسخر للأقرباء من شعبه ، المتحكم في حاجياتهم أجمعين ، الحاكم في شعبه بأمره هو لا بأمرهم ، المطلق التصرف في شئون هذا الشعب ، غير المسئول عما يفعل ، أو هو الطاغية ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى . وان شئت اصطلاحاً سياسيًّا حديثاً فهو الديكتاتور الذي يمثل ديكتاتورية الفرد .

هذه هي نشأة الطغيان وصلتها بالتجارة ، وما كان من شأن الثروة اذا امتلكها الفرد - وشأن التاجر من الجمعية البشرية الأولى ، ومقامه الاجتماعي فيها ، وسلطانه السياسي عليها قبل أن تعرف العملة . ومذ اخترعت العملة أصبح للثروة ، وأصبح للمموِّل شأن آخر نعرض له في فرصة أخرى .

ابراهيم ابراهيم يوسف